الوفاق بين الجنسين

خطاب لمنشي، الحسناء تلاه في حفلة الجمعية الخيرية الارثوذكسية في طرابلس
في ٣ حزيران سنة ١٩١٠

سلامٌ عليكم، سادةَ الفضل وسيدات النبل، احييكم، واحيي مبدأ ساميًا يجمعنا الان، مبدأ عظيماً مآله الانسان للانسان

واشكر جمعيةً كريمة دعتني لاحدّثكم. وفرصةً ثمينة اتاحت لي حظّ التعرُّف بكم، واخصُّ بالشكر اسقفًا مفضالاً يرأس هذا الاحتفال ومتصرفًا هماماً يؤانسه بحضوره، واسألكم سؤال مريض قد تمكن منه الضعف ان تسمحوا لي بتلاوة خطابي تلاوةً لئلا تخونني الذاكرة فاعجز عن تتبع الموضوع القاءً، واعتذر اليكم عما بي، ولطفكم خير عاذر لمريض ضعيف مثلي. لا سيما وانا الان في حالة يصعب على من كان فيها ان يتكلم كخطيب وانما الخوف من ان يؤاخذني البعض بحجة يصحّ فيها قول من قال ـ لا تنهي عن خلق وتاتي مثله) نشطني على مغادرة السرير فنهضت لئلا يشمت بي المتألمون وتزدريني المترجلات وتوكأت على نفسي وجئتكم في اخر الحفلة آملاً منكم معاملتي بالرفق وعهدي بكم خير من رفق بضعيف (١)

عند ما دعتني عمدة هذه الجمعية لاحدّثكم في هذا الاحتفال فكرت كثيرًا في اختيار موضوع يليق بكم ويوازي قيمة الوقت الذي به يشغلكم وقد احترت في الانتخاب لوفرة المواضيع الضرورية للامة السورية ولرغبتي في تعمد الشؤون النسائية قيامًا بواجب مهنتي الصحافية فضلاً عن كوني لم ارني قادرًا على تشنيف اذانكم بمعان لطيفة تلمس القلوب فتهز اسلاك العواطف

(١) كان منشي، الحسناء يومئذٍ مصاباً بانحراف بصحته بسبب الملاريا

او بفكاهات ظريفة تطرب الفؤاد وتشرح الصدر كما رغب الي صديقي المحامي القصاص سكرتير الجمعية لما فاوضني بشأن الخطاب فهـذه امور لا قدرة لي عليها الان وقد اختص بها غيري من اولي الفكاهة والنجابة وما كنت لاخالف ما نشأت عليه مذ بدأت بالانشاء من ايثار الجد على الهزل وان يكن الهزل ملذاً مسراً والجد جافاً مملاً وذلك بجاراة لميل في النفس فطرت عليه منذ خلقت ومن الثقالة تغيير ما فطر عليه الانسان من هذا القبيل و بدله بضـده . ومن شك بهذا الراي فليراجع امثولة الغراب مع الحجل فان فيها العبرة الكافية

وبينما كنت افكر في ذلك واميز بين افضلية المواضيع ومناسبتها لهذا الاحتفال تذكرت مجد طرابلس القديم يوم كانت معززة بالعلم والادب وتذكرت ان الافرنج هم الذين هدموا صروح هذا المجد وعطلوا صنائع المدينة واوقفوا تجارتها وابادوا علومها وادابها . هم حرقوا مكتبتها الشهيرة ذات الفضل الوافر على ابي العلاء المعري وهي اعظم مكتبة جمعت في العالم منذ ابتدأ الانسان بجمع الكتب الى الان . وقد روى المؤرخون انهـا جمعت ثلاثة ملايين من المجلدات اي بمقدار ما جمع في مكتبتي باريز ورومية الاهليتين او مكتبتي المتحف البريطاني في لندن والقيصرية في بطرسبرج واكثر مما في مكاتب برلين ورومية الاهليتين وفينا الملوكية . ولا يخفى ان الكتب في تلك الايام كانت منسوخة خطاً . لان الطباعة لم تكن معروفة بعد . وتمثلت طرابلس في نكبتها . وما عانته من مضض التقهقر وبواعث الانحطاط زهاء سبعة قرون الى ان تيسر لها ان تفتح عينيها على نور نسل من اطفأ منها النور . الى ان جادها الحظ بنفحات العلم والادب على يد ابناء من اعدموها اياهما يوم كانت غنية بهما . الى ان بدأت بالنهوض من سبات الجهل وشرعت بالتحرر من رقه . الى ان نفضت عنها غبار الخمول وسارت في سبيل الرقي . الى ان بلغت ما ترون الان

من التقدم والارتقاء مما يبشر بمستقبل مجيد لها تشير اليه احوالها الحاضرة

وكنت حينئذٍ عائداً من مكتب ادارة الحسناء فلما بلغت ساحة الاتحاد مكثت هنيهة امتثل ذلك ثم عنيت بملاحظة الناس كمن يفتش عن ضائع لعلني ارى ما اتخذ منه موضوعاً لخطابي فارتاح من عناء الحيرة. ولطالما اتخذت المواضيع الجليلة للخطب والمقالات من مشاهد الناس ومظاهرهم في هذه الساحة حيث يتمثل البيروتيون بجميع احوالهم من علم وجهل وتهذيب وقلة ادب من غنى وفقر ويسر وعسر من قوة وضعف وصحة ومرض ومن راحة وتعب وهناء وشقاء. وبينما انا ممعن النظر في ما ارى ابصرت امراً صغيراً في حد نفسه كبيراً بنتائجه، استجمع انتباهي اليه فحولت افكاري نحوه وتاملته ملياً. فاذا هو مما اراه في كل يوم ويراه ايضاً جميع الناس. هو امر صار اعتيادياً في بيروت حتى الفه النظر ولم يعد غريب الشكل

فتاة جميلة تناهز العشرين من عمرها لابسة ثوباً مخرّماً على اخر زي ومرتبة شعرها بتفنن جميل تسير بين الناس سير الأبضايات كأنها في ملعب مترجلة في مشيها كثيراً غير حاسبة للمارة حساباً ولا معتدة بالحشمة ولا بالحياء تزاحم هذا وتلامس ذاك وتسابق الاخر كمصارع نازل الى الميدان ولا ينقصها لتماثل تماماً بني معتر الا المسدس والخنجر كأن كل ما فيها من الجمال غير كاف لاستلفات الانظار اليها حتى تزيدها بالترجل استلفاتاً. مرت أمامي هذه الفتاة تطوح يديها كالكدعان وكادت يمناها تلطم بي

فنظرت اليها نظر مشفق متألم وقلت لا حول ولا.. ولم ادرِ لماذا اشغلني امرها على انني آلفت هذا المشهد لوفرة ممثلاته في البلد. ولكن العناية الالهية على ما يظهر لي الهمتني التأمل لافوز بموضوع مناسب لخطابي لا سيما وقد تلا الامر الاول أمرٌ ثان ثبتني في العزم على اختيار هذا الموضوع

شابٌ في الثلاثين من عمره تقريباً ناحل الجسم ممزق الثوب حامل على ذراعيه طفلاً و بيسراه قنينة صغيرة فيهـا حليب و بفوهتها مصاصة يمتص منها الطفل غذاءه . والشـاب يستجدي اكفّ المحسنين ويدّعي بوفاة زوجته وشدة فاقته ومرارة غربته . وقد يكون صادقاً في مدّعاه على انه لو عقل لما عدم ميتماً لابنه وشغلاً له

ابصرت هـذا المشهـد وكنت لا أزال مفكراً في ذاك فتمثلت حالاً اولئك الرجال المتأنقين وتلك النساء المترجلات كيف يخالفون اصول الاجتماع المبنية على الحقائق الطبيعية

تمثلت الرجل المكدّ في الشغل تحصيلاً لقوت العائلة كيف يعود مسـاء الى البيت منهوك القوى و بدلاً من ان يرتاح فيـه من عناء الشغل يشتغل بما يزيده تعباً على تعب . فيتأنث ارضاء لعقيلته المترفة كما يتأنث الشاب استلفاتاً لانظار الاوانس والسيدات اليه

تمثلت الفتاة تخيط وتخرم وتخرج وابوها او زوجهـا او اخوها يا كل من جنى اتعابها هنيئاً مريئاً

تمثلت المرأة تتحكم بالرجل كما كان قبلاً يتحكم فيهـا وكلاهما يوسعان الخرق بينهما بعكس ما وجدا اليه

تمثلت كل ذلك كيف ينتشر في بيروت وكيف يتمكن من البيروتيين فيكبلهم باغلاله . فتأثرت وقلت من فؤاد مألوم ـ يا تعاسة من لا يعرف حدّه ولا يقف عنده

وعدت بفكري الى طرابلس والخطاب فخفت ان يصيبكم ما اصـابنا فرأيت الوفاق بين الجنسـين موضوعا مناسباً استلفت انظاركم اليهِ قبل ان تنتقل العدوى منا اليكم وقبل ان ينتشر الداء بينكم انتشاره بيننا ويقوى

عليكم قوته علينا .....

سنة الحياة جهاد ونزاع . وكل من وما في الطبيعة من حي وجماد يجاهد وينازع في سبيل الحياة . ناموس طبيعي اجتماعي عام نراه في جميع مخلوقات الله واضحاً جلياً . في عالم النبات وفي عالم الحيوان بين الافراد وبين العموم نرى الجهاد في كل حين والنزاع في كل آن . نراه حسياً ومعنوياً ونأتيه بداهة بلا امعان . وليس ما نتمتع به من الطيبات وما نعانيه من المكاره الا نتائجه ليست عاداتنا واخلاقنا وعلومنا واعمالنا وكل ما فينا ومعنا ولنا الا هي . وكل منا ينال منها ما يستحقه جهاده ونزاعه ولا يحصد الانسان غير ما يزرع

ضعيف يسقط وقوي يقوم . كسلان يقف ومجتهد يسير . واهن يتأخر ونشيط يتقدم . قادر يحكم وعاجز يُحكم . هذا شأن الناس دائماً ابداً ايها الناس

ولا غرو اذاً اذا راينا الجهاد واقعاً بين الرجل والمرأة في هذه الايام والنزاع قائماً في بلادنا بين عاداتنا القديمة وما يتسرب الينا من جديد العادات . وسوريا اليوم في دور الانتقال وحري بها ان تكون كذلك ونهضتها لا تزال في المهد من حيث السياسة وفي الحداثة من حيث العلم وفي الفتوة من حيث الادب وفي الشباب من حيث الاخلاق كما انها في الكهولة من حيث التطلب وفي الشيخوخة من حيث العادات وفي الهرم من حيث الاعتقادات

جهاد عظيم بين الرجل والمراة ونزاع اعظم بين التقليد والتجديد . هي تهاجم وهو يدافع . تسعى الى السيادة فيخاف على سلطته فيعاكسها . تطالب بحريتها فيراها غير اهل لها فيصدها عنها . ترغب في الاستقلال فيعيقها عنه . ويحاول حرمانها من حقوقها تاييداً لنفوذه وحباً بذاته

هكذا بدأ الجهاد بين الجنسين وهكذا بقي ويبقى . بيد انه قد تجاوز

الحدّ عند البعض وانعكس الامر فصار هو المهاجم وهي المدافعة · صار الرجل راضياً ولم تعد المراة راضية · مهد لها سبيل السيادة فركضت الى ذروتها دفعة واحدة واستوت على عرشها دون ان تفسح له مجالاً عليه · اباح لها الحرية فأساءت التصرف بها واستخدمتها لنكايته · مكنها من الاستقلال فشمخت باتفها وازدرت به · انالها حقوقها فطمحت نفسها الى حقوقه ولم تعد تعبأ بواجباتها ولا تهتم بها · فتأنث وترجلت · واتسع الخرق بينهما حتى صار داء مستحكماً يخشى من اتصال عدواه الى المستعدين اليه

وقد بدأ الجهاد منذ تعلمت المراة منذ استنارت · بدأ مذ شعرت بوخامة عاقبة الاستبداد بها مذ رات نفسها اهلاً للتمتع بحقوقها · وما عدمت انصاراً من الرجال الاحرار الذين ساعدوها في جهادها المقدس مساعدات جمة لولاها ما فازت بما بلغت اليه . وللان ما برح المتكلمون في حقوق المراة وواجبات الرجل اكثر من المتكلمين في حقوقه وواجباتها بكثير · وما ذلك الا لان الرجل قوي متسلط والمراة لا تزال اضعف منه · على ان الامر صار بالعكس عند البعض وامسى ابن ادم اجدر بالمناصرة من بنت حواء · فلنتبه اذاً قبل فوات الفرصة لئلا ندم يوم لا ينفع الندم (البقية في الحسناء التالية)

قدوة السيدات

الملكة ماري الانكليزية كزوجة ووالدة وملكة

اشتهرت بنات حواء بانهن قليلات الصبر على ما يشغلهنّ عن الاهتمام بزينتهنّ والتفرغ لذلك حتى ان كثيرات منهنّ يتخذن ثروة رجالهنّ سبيلاً الى اتمام هذه الامنية فلا يتأخرن ساعة واحدة عن القاء احمالهن المختصة بتربية البنين والاعتناء بالشؤون المنزلية على الخدم والحشم متى كان هذا في الامكان